الموت تحفة المؤمن

سهى عبد الحميد القضماني

ننقل فيما يلي مقدمة الكتاب الذي صدر عن المركز الإسلامي في آخن- مسجد بلال ، وقد صاغته زوجة الفقيد الحبيب أحمد علاوي من وحي عواطفها ، وحبها الصادق للفقيد ، أسكنه الله فسيح جناته .

الحمد لله الذي شرفني بالعبودية لعظمة جلاله ... وهداني إلى التوحيد ، وكرمني بالإيمان ، وأعزني ورفعني بأعظم الديانات وأتمها وأكملها ؛ الإسلام فضمن لي استقرار ذاتي ، وعرفني ومتعني بمنتهى حريتي واستقلالي بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وبعد ...

تتغير ملامح الحياة باستمرار ... تلك هي سنة الكون ... يتغير اللون والطعم والحجم ؛ لأن لكل شيء طبيعة ... وللطبيعة فصول ... والمسلم محاط بدوائر سلوكية لينة وسهلة ... تتسع وتضيق ، تكبر وتصغر ... لكن مركزها ثابت لا يتغير ... هو ... هو ...

واليوم تغيرت حياتنا وبتغيّرها غُربة وغَرَابة ... وحمداً لله على أنه لم يكلفنا الحفاظ علي منهج إسلامنا لأنه أعلم منا بنا ... ووعدنا بحفظه لنا لقوله : ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ [الحجر : ٩] .

ويبقى ديننا فاتحاً لنا ذراعيه ؛ لنعود دائماً إلى مرجعيته ، وجمال ظلاله ، ومن أهم الوصايا التي يحرص الإنسان عليها : وصية الموت ؛ لأنها عيون المسائل ... وآخر ما أوصانا به سيدنا وحبيبنا وقائدنا إلى الجنة محمد بن عبد الله ﷺ : كتاب الله وسنته الشريفة ... وهذا هو كنـــزنا الحاضر ... وخلاصنا الدائم ...

وبالخير الكامن فينا ، والإرادة المتهيّئة للعودة إلى مبادئ ديننا ، نَسعَد ونرقى بسمو إسلامنا ... ونحن اليوم نرى المؤشرات الخطيرة على تدهورنا ، التي باتت للأسف عديدة ورهيبة ، والتي جعلتنا في المحصلة ، نحصد الهزائم على جبهات متعددة ، ونلعق المرارة ونحن نمضي في سبلنا المتفرقة ...

ببشريتي المحدودة ، وبعلمي الضئيل ، وبمعرفتي الزهيدة ، أعتقد أن سبب الأسباب القابع وراء كل تخلف فينا ... هو العجز التربوي ، والفجوات الهاجعَة في أساسنا الأخلاقي ، ومنطلقنا الأول لإصلاح شأننا ... بيوتنا ، وقادة حركَة التغيير ، وأصحاب الصفوف الأولى هم : الآباء والأمهات الذين يزرعون النبتة الأولى ، ويتفانون في الحفاظ على سلامة وصحة الخلية البداية ... لينشأ الإنسان العابد الذي نريده أن يحيا بالإسلام ويرقى بمبادئه .

ولن يكون هذا إلا بإعادة تأسيس بيوتنا على قواعد إسلامنا ، لا على ما استوردناه ؛ فما أفلح معنا ولا أفلحنا به .

وليتنا لم نستهلك أرصدتنا بشراء مساطر لا ترسم لنا الخطوط المستقيمة التي أُمرنا بالسير عليها ... مع أن مسطرة الإسلام حاضرة بين أيدينا ؛ لنُراقب فيها استقامة أوقاتنا ونوايانا وقرارات حياتنا ، وأُمرنا أن نردد هذا على أنفسنا عندما نصبح وعندما نمسي داعين في صلواتنا : ﴿ **اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيْمَ** ﴾ ، وحتى تكون أسرنا محاضن المجتمعات المسلمة ، لابد أن نعود للدخول إلى بيوت الزوجية من أبوابها التي حددها الشرع لنا ، ويكون اختيارنا لمؤسسيها تبعاً لما جاءت به السنة المطهرة المُشَرِفة المنـــزهة عن أيّ عيب أو نقص .

وغذاء الأزواج وعافيتهم ونجاح تربيتهم قائم على صدق الحب بينهم وحرارته ... وحده الحب الدافئ الصادق ، الذي تذوب فيه الأنا ، قادر على أن يمنع تسرب أي سر من أسرار البيوت ، ويحول بين تشريح الأزواج لبعضهم بعضاً ، ويُحصن الذرية من استيراد وجبات تربوية جاهزة ، أثبتت أن السّم خفي فيها وفشلت مساعيها .

وإذا كان أولادنا يرون خارج بيوتهم ، وفي الأجهزة السائدة والقائدة داخل

غرفهم ، الحرام بكل أشكاله ومغرياته ، فَعلامَ لا نعرض لهم الحب الحلال بأجمل صوره وغاياته ؟ وعَلامَ نعيش أمامهم كالراهبات والرهبان ؟ ونعتم على مساحات العواطف بأسمك الستائر ...

وقرآننا عرض قصة المودة بأدق تفاصيلها ، وبأروع أحاسيسها ، ونحن عرفنا الله بالحب ... وعبدناه بالحب ... وأطعناه بحب ، ولولا أنه أحبنا لما خلقنا ولما أمرنا بعبادته ، وإذا كانت العلاقة بين الخالق والمخلوق تُبرز الحب وتبينه ، فلماذا يُعتم عليها ، ولا يتمتع بها المخلوق مع المخلوق .

إن صقيع العواطف بين الأزواج والزوجات – إلا من رحم ربي – هو الجليد الصارم الذي يُهشِّم الدعائم ويَهز الأركان .

وعملاق الإسلام لا يحتاج إلى قزم مثلي ليشهد على عظمته وكمال قاعدته ويقين نجاحه .

لكني رأيت أن أنسب الفضل في حياتي إلى أصحاب الفضل ، داعية لهم بالرحمة والمغفرة .

أمي ... التي تعبت في تربيتي ... أرتني جمال المودة بسلوكها وصدقها ... وكانت دعوتها الدائمة لي : « اللهم ارزق ابنتي رجلاً ترضى عن دينه ودنياه » ، وكان لها ما أرادت .

أبي ... الذي زوجني بحب وطواعية لأمر رسولنا الكريم ﷺ : « **إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ إِلاَّ تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ** » [رواه الترمذي (١٠٨٤-١٠٨٥) ، وقال الألباني في صحيح الترمذي (٨٦٥-٨٦٦) : حسن]. فعلى حبه الكبير لي ، وتعلقي الشديد به ، كان سعيد ابن المسيب الذي لم يمض بابنته إلى بيت تلميذ له عرفه وخبره ليزوجه ابنته ، بل أرسلني بطرد بريدي إلى قارة أخرى ، وإلى رجل لا يعرف عنه إلا ما يريد معرفته ، غير مبال بالمقاييس السائدة في مجتمعنا ، ضارباً بفرعنة العادة والتقليد عرض الحائط ... وعندما سُئل باستغراب عن سبب إرسالي ... أجاب بثقة

مازالت كلماته ترن في مسامعي ، كأنه قالها الآن : « إنه رجل مع الله والظروف ضده وطلب ابنتي وأنا مطالب أمام الله أن أكون معه لا أن أكون عليه » ، وكان هذا أروع ما كرمتني به أبوته ، وعندما أحس بخوفي من المجهول الذي أتيت إليه وحدي ، ضمني عند وداعي وقال لي : « إذا اختلفت معه في أمر فحكمي بينك وبينه كتاب الله » .

وكانت حياتي على اختلاف ظروفها وأحداثها قمة الأمان والاطمئنان ؛ وعرفت السعادة بأجمل معانيها .

وطوال رحلتي مع زوجي عشت الحب بأروع مضامينه ، وتعلق قلبي به كما لم يتعلق أحدٌ بأحد ، فأراد الله سبحانه اختباري ، وشاء أن يسترده مني .

وها أنا أترك قلمي يدون صدق مشاعري ، دعوة محبة لكل أب : أن يكرم بناته بالتوكل على الله ، والثقة بما عند الله ، بكلمة الإسلام وصداق الإسلام .

ولكل أم : أن تكون الأولوية في مسيرة تربيتها تهيئة بناتها لأروع ما خُلِقن من أجله : مهمة التربية ... وتأصيل قدسية الزوجية ، وتزرع في نفس كل بنت أن زوجها ، سُلَمها الذي ستصعد به إلى الجنة ، ذاك هو المتمَسّك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، المستورد لتعاليم دينه لا المصدر لها ، وتُعرّف أبناءها بالمعاني المضمورة بوصيته ﷺ : « **اسْتَوْصُوا بالنِّسَاء خَيْرًا** ... » رواه ابن ماجة ، وأن تكون تلك المبادئ ملفوفة بالمودة الدافئة ، محاطة بالمشاعر الصادقة .

عندها سيعرف أولادنا أن أروع قصص الحب ليست الأسطورة الغارقة (تيتانيك) ، ولا روميو وجوليت ، ولا القصص الأفلاطونية أو نقيضها ، وجمال تلك العاطفة ورقيّها ليس كما تعرضه عولمة حب القشور من هراء الأغاني المُصورة ، بما فيها من التعري والسخف وضبابية الأحاسيس ، بل في أحضان الإسلام تُعرف المودة الحقيقية ، ونعيشها بمنتهى السعادة ونؤجر عليها دنيا وآخرة .

بقلمي المتواضع أردت أن أسجل حمدي لله وشكري له ، بكلمات أخطها لزوجي الراحل ، شاهدة على حسن خُلقه ودينه ، في حياته عامة ، وفي بيته وخلوته خاصة ، وكان عوناً لنفسي على نفسي ، وستر عيوبي ، وغفران تقصيري ، وما جرحني قط بكلمة ، بل أحبني وأكرمني ، وكان له الفضل في أي تقدم بحياتي ، ولذلك ... ارتاحت نفسي بأن تبوح بما يختلج فيها ، امتناناً له واعترافاً بفضله عليَّ .

اللهم يا من سمع الهمس من ذي النون

ويا رادّ حزن يعقوب

ويا راحم عبرة داود

يا من كان قبل أن يكون شيء وأنت المكون لكل شيء

يا أول بلا بداية

ويا آخر بلا نهاية

ارحمه وقد توفيته وآنس وحشته

وتفضل عليه إذا حاسبته

ونفِّس بعد الموت كربته

واجعلني أهلاً للقائه

وكما أكرمتني به في الدنيا ، فأكرمني به في الآخرة ، فبعد الموت إحياء وبعد الفرقة لقاء :

﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [الحديد : ١٢] .